الفصل الحادي عشر

الشروط الفنية والاقتصادية للطباعة والكتب المطبوعة

في القرن الخامس عشر

لاحظنا سابقاً ان اوائل الطابعين اتخذوا المخطوطات نماذج لهم ، وانهم كانوا يحاولون جعل الكتاب المطبوع تقليداً امنياً للكتاب المخطوط ، ولاسيما فيما يتعلق بالزخرفة والتصوير حيث كانوا يتركون في المطبوع فراغاً مناسباً لاضافة الزخارف له ـ فيما بعد ـ يدوياً . ولكن هذا الاتجاه مالبث ان زال واقلع الطابعون عن اتخاذ المخطوطات نماذج لهم وبدأوا يطبعون رسوماً مع النصوص نفسها ، وذلك بدلاً من تكليف بعض الفنانين برسمها باليد عقب انتهاء الطباعة . وهذا ماتبع في الكتب اللوحية التي كانت لاتزال واسعة الانتشار خلال العقود الاولى من عهد ظهور الطباعة ، حيث ظهرت فيها الرسوم المطبوعة نتيجة لحفر صورها وطبعها في نفس الوقت مع النصوص المكتوبة فوق الواح من الخشب . وكان طبيعياً ان تنتقل تلك الصور المحفورة على الخشب فيما بعد الى الكتب المطبوعة بحروف متحركة ، بحيث كانت كليشيهاتها الخشبية المحفورة عليها الصور توضع كجزء مكمل للعمود ، بل وتطبع في نفس الوقت مع الحروف المجمعة .

هذا وان اول كتاب استخدم في تزيينه وسائل الايضاح والصور المحفورة على الخشب هو ذلك الكتاب الذي طبعه البرخت فيستر Albrech PFister من بامبرغ . ويحتمل ان يكون قد بدأ حياته رساماً يلون صور القديسين في كتب الصلوات واوراق اللعب وما اليها من المطبوعات اللوحية الاخرى . ولذا فقد كان خبيراً بالصور المحفورة على الخشب .

وقد قام سنة ١٤٦١م بطبع كتيب شعبي صغير، وهو غنيٌ بصوره العديدة المحفورة على الخشب وهو كتاب اسمه**حجر كريم** وهو عبارة عن مجموعة قصص خرافية . وفضلاً عن طرافة موضوعه فهو اول كتاب الماني مطبوع ولاتزال توجد منه نسخة واحدة ناقصة مبتورة . وتشكل الخطوط القوية المحفورة في الخشب والتي تصلح للطباعة صلاحية تفوق الوصف ، مضافاً اليها قوة الحروف القوطية ، كلاً له قيمة زخرفية عظيمة .

اضف الى ذلك ان كتب فيستر ومعاصريه لم تكن تهدف الى اي تأثير زخرفي بحال من الاحوال ، ولذا يجب اعتبارها مجرد رسوم حقيقية الغرض منها توضيح النص للقارىء الساذج الذي اعد الكتاب له .

وقد انتشر فن الحفر على الخشب انتشاراً عظيماً بعيد ذلك ، ووجد عدد من الفنانين الالمان الذين كانوا اول من اشاع استعمال الحروف الاولى والمزخرفة على الخشب . ونجد في مختلف كتب الفترة الاولى ان الحفر على الخشب بشكل من الاشكال قد استخدم لتوضيح اشياء مختلفة تمام الاختلاف . فنجد الشكل الواحد يستخدم غالباً في تمثيل عدد من الشخصيات مختلفة كلياً عن بعضها بعضاً . وقد يكون ذلك راجعاً الى الرغبة في الاقتصاد ، وقد يرجع ذلك ايضاً الى ان الفنان القدير كان يلزمه وقت كبير لحفر صورة واحدة فوق قطعة من خشب الزان او الكمثرى . وربما كان ذلك راجعاً الى ضعف الخيال عند الرسام نفسه .

على ان الصور الموجودة في كتب فيستر وغيره من الكتب التي صدرت في تلك الفترة الاولى للتصوير لايمكن اهمالها كلياً من حيث قيمتها الفنية على الرغم مما بها من عيوب . بل ربما اثارت اهتماماً خاصاً لدى البعض بسبب طبيعتها البدائية وسذاجتها . ولهذا لايمكن انكار صلتها بصور القديسين المحفورة على الخشب ، وكذلك صلتها بالصور الواردة في الكتب اللوحية ، ومع ذلك فقد كانت تحمل في ثناياها نواة هذا الفن القائم على الخشب ، وهو الفن الذي مالبث ان سما وارتفع شأنه بعد بضعة عقود من السنين على يد الفنانين دورير وهولباين ، كما وجد في ايطاليا آفاقاً جديدة .

توراة كولونيا المحفورة سنة ١٤٨٠ م :

تمثل هذه التوراة تقدماً جديداً في الحفر على الخشب بالنسبة للفترة القديمة السابقة ، وهي ولاشك اشهر كتب التوراة العديدة المصورة والتي اعتبرت على ممر الزمن ممثلة لمرحلة خاصة في تاريخ الكتب . اما صورها فقد رسمها فنان عظيم ، ولكنا نجهل اسمه ، كما لانعلم اسم الحفار المبدع الذي حفر كليشيهات الخشب حسب رسومها .

نجد هذه التوراة ، على عكس معظم الكتب التي مر ذكرها ، تمثل صوراً على الخشب لاتعني مجرد تحديد لمعالم الرسم فحسب ، وانما امكنها ، بخطوطها القوية ، ان تخلع على الشخصيات مظهراً مجسماً ، ومثل هذه الحياة البادية في الرسوم لم تكن معروفة من قبل في الكتب السابقة .

ومالبث فن الحفر على الخشب ان تقدم وتطور حتى اصبح يشكل عنصراً زخرفياً بكل مافي هذه الكلمة من معنى متوافقاً توافقاً تاماً مع النص الوارد في الكتاب . ولعل اهم كتاب صدر في اواخر هذا القرن (١٤٩٣م) يمثل هذا التقدم السريع في فن الحفر على الخشب هو كتاب**تاريخ العالم** ، والذي يعتبر ، بما حواه من الفي صورة مطبوعة على الخشب ، من اثمن الكتب المزودة بالصور والتي ظهرت حتى الآن .

ولقد وصل فن الزخرفة إلى درجات عليا من التطور على يد الألماني راتدولت Ratadolt الذي أسس مطبعة في البندقية سنة ١٤٧٠ م وافتتح فن البندقية الخاص بالحفر على الخشب ذلك الفن الذي قدر له أن يتطور تطوراً عظيماً في الفترة التالية .

ولاشك ان الحروف الكبيرة الاولى والاطارات المحفورة على الخشب التي صنعها راتدولت هذا تعتبر اول مايحمل طابع النهضة ، اذ نجد بها الزخارف القديمة المعروفة في مخطوطات عصر النهضة ، وان كانت محاكاتها قد تمت دون تقليد حرفي . وقد اكتسبت تلك الزخارف ثوباً فنياً بارعاً من السواد والبياض ، الناتج من الحفر على الخشب ، وله نفس الروعة التي امتاز بها في الماضي بهاء الالوان البراقة في المخطوطات .

وحتى بعد ان غادر راتدولت ايطاليا سنة ١٤٨٦ م نجد اثره مستمرا فيها ، اذ لاتنقطع في السنوات التالية زيادة عدد الكتب التي تمتاز صحيفتها الاولى باحاطتها ـ على نسق كتب راتدولت ـ باطار عريض من طراز عصر النهضة ، تتعدد فيه زخارف الاعمدة والاصص واوراق الغار والكرم والحيوانات الخرافية والاقنعة والرؤوس الآدمية وغيرها ، ممتازة في ذلك كله بخيال واسع خصيب .

وهكذا نجد فن الطابعين الالمان الاوائل ، المتخصصين بالحفر على الخشب قد اتحد اتحاداًمثمراً مع الادراك الجمالي الذي كان سائداً في عصر النهضة وخاصة في البندقية من ايطاليا حتى بلغ فن الكتاب ، في وقت قصير للغاية بهاءً لم يبلغه منذ ذلك الوقت في ميدان الطباعة . وعلى الرغم من تجارب القرون التالية ، بل وعلى الرغم من التحسينات الضخمة التي ادخلت على الادوات المستعملة في عصرنا الحالي ، الا اننا في شك ما اذا كنا قادرين على خلق كتب يمكنها ان تنافس او تضاهي الكتب التي طبعت في البندقية في حدود سنة ١٥٠٠ م .

ومن اشهر الكتب المصورة الصادرة في هذه الفترة في ايطاليا كتاب**ترجمة التوراة** الصادر سنة ١٤٨٠ م . ولاشك ان صور هذا الكتاب الصغيرة العديدة المحفورة على الخشب بدقة عظيمة قد تأثرت بصور**توراة كولونيا** .

ولقد ازدهر فن الحفر على الخشب في المانيا اوائل القرن السادس عشر حتى اعتبرت هذه الفترة العصر الذهبي للحفر على الخشب . ويعتبر رائد هذا الفن في المانيا الفنان البرخت دوريرAlbrech Durer الذي ظهر له في مدينة نورنبرغ سنة ١٤٩٨ م كتاب**رؤيا يوحنا** ، وهو كتاب تمثل لوحاته الخمس عشرة المحفورة على الخشب احد الاعمال الفنية التي تحدد عصراً في فن الطباعة . اذ تزدهر هنا الصورة المطبوعة بالاسود والابيض بحرية تامة ودون اعتماد على تلوين ، بحيث تؤثر تأثيراً رائعاً كاملاً في المشاهدين ، وذلك عن طريق احداث الظل والضوء الناتج عن التباين الذي يظهره مجرد رسم الخطوط السوداء على الورق الابيض فقط .

ولقد انتشر فن الحفر على الخشب في المانيا كلها بسرعة تدعوا الى الدهشة ووصل اقصى نضجه ثم صار بعد ذلك نزعة شائعة في المجتمع مات بعدها من اثر التخمة . ولقد كانت ستراسبورغ من اشهر مراكز هذا الفن في المانيا ، كما كانت

البندقية من اشهر مراكزه في ايطاليا ، وكانت بال من اشهر مراكزه في سويسرا .

ولقد نبغ في بال عدد من الطابعين والحفارين على الخشب اشهرهم هولباين الذي انتج عدداً كبيراً من الكتب المليئة بالزخارف المحفورة على الخشب ، وتعتبر الصورة التي زين بها هولباين كتاب**العهد القديم** الذي اصدره سنة ١٥٣٦ م من اجمل مااصدره من رسوم . فالخطوط الواضحة البسيطة التي تكون صور هولباين انما يبدو انها خلقت خصيصاً ، لما بها من انسجام تام ، مع الحروف الرومانية الدقيقة او المائلة .

ولقد ساعد على تقدم هذا الفن تشجيع الحكام لمثل هذا النوع من الفن وجمعهم الفنانين لانتاج كتب ذات صور محفورة على الخشب ينتجها فنانون قديرون ، كما فعل الامبراطور مكسيميليان الذي جمع حوله خيرة فناني عصره فانتجوا له كتباً غاية في الروعة طباعة وتجليداً وملأوها بالصور الفنية الزاهية المحفورة على الخشب .

ولكن هذه الكتب الفاخرة يجب الاتنسينا بقية الكتب العادية التي صدرت آنذاك ، وهي كثيرة ، لاستعمال الرجل العادي ، على حين ان الكتب سالفة الذكر كانت للاغنياء والمترفين .

هذا وان اغلب الموضوعات التي تحويها تلك الكتب العادبة هي موضوعات دينية امرت الكنيسة غالباً بطبعها بكميات كبيرة وبيعها لافراد الشعب باسعار معقولة ، وهي كتب الصلوات والتراتيل وكتب الفروض الدينية وماإليها من موضوعات . وكان لتلك الكتب الكبيرة اثر زخرفي جليل بفضل حروفها الكبيرة والصغيرة التي تميز فصول النص المختلفة ، بالاضافة الى التعاقب المستمر في الطباعة باللونين الاحمر والاسود . وقد تخصص كثير من المطابع في انتاج هذا النوع من الكتب ، وكذلك الحال في كتب ساعات الفروض الفرنسية الصغيرة وكتب العبادات الالمانية المشابهة .

كذلك تطور فن التجليد تطوراً عظيماً واصبح تجليد الكتب صناعة لها تنظيمها الخاص ، وكان الشائع في الوقت الذي تلا اختراع الطباعة ان يشتغل الطابعون بتجليد الكتب الى جانب طباعتها . ولقد ظهرت في الاراضي الواطئة اواخر القرن السادس عشر طريقة للتجليد كان زخرف الغلاف فيها يحفر كله على لوحة واحدة تطبع بواسطتها الزخارف دفعة واحدة بحيث تبدو الزخرفة بارزة على سطح الجلد . ولقد انتشرت طريقة التجليد هذه والمسماة طريقة التجليد البارزة ، في كل من المانيا وانكلترا وفرنسا عن طريق اعضاء نقابات المجلدين والمهاجرين الذين أسسوا مصانع للتجليد في كل من كمبردج وباريس وليون .

اما التجليد في ايطاليا فقد سار في خط تطوري مغاير كل المغايرة لفن التجليد في كل من المانيا وفرنسا وانكلترا . ذلك ان ايطاليا عامة والبندقية خاصة ، كانت على صلات وثيقة ومستمرة مع الشرق الاسلامي آنذاك ، وقد وفد على ايطاليا مجلدون شرقيون في نهاية القرن الخامس عشر حيث ارتقت الطباعة فيها آنذاك رقياً عظيماً .

ولم ينقل اولئك المجلدون الشرقيون الى زملائهم الايطاليين بعض الخصائص الفنية فحسب ، بل عرفوهم فوق ذلك على اشكال زخرفية جديدة .

واول ما تعلمه الايطاليون من اساتذتهم الشرقيين المسلمين ونفذوه في تجليداتهم هو التذهيب وبدأ المجلدون الايطاليون يمزجون بين التذهيب وبين التجليد على البارد بحيث نشأ من هذا المزج فن تجليدي خليط .

ثم مالبث ان طغى التجليد المذهب على انواع التجليدات الاخرى كما نرى في تجليدات الدوس في ايطاليا التي نفذها لحساب كبار هواة التجليد في عصره امثال غروليه وغيره من الاغنياء .

تأثير الطباعة على المكتبة وعلى شكل الكتاب نفسه :

لقد انتشرت الكتب المطبوعة بغزارة في اواخر القرن الخامس عشر واوائل القرن السادس عشر ، وقد وجد اناس كثيرون يقرأون الكتب ، فادى الطلب على

الكتب الى زيادة الانتاج فيها ، كما ان زيادة حجم انتاج الكتب ادى الى زيادة البشر الذين يقرأون . ومع ازدياد عدد البشر الذين يقرأون اتت العصور السوداء المظلمة الى نهايتها في اوربا . ولعل المطبعة ، اكثر من اي عامل اخر ، مسؤولة عن انتهاء العصور المظلمة وبداية العصور الحديثة .

ولقد غيرت المطبعة ، بشكل خاص ، عالم الكتب ؛ وقد تم هذا التغيير تدريجياً وفي فترة استغرقت نصف قرن او اكثر ، وذلك حسب انتاج المطابع المتزايد الذي ملأ رفوف المكتبات في اوربا . فلم يعد بائع الكتب تاجر المخطوطات ووسيطها ، وانما اصبح تاجر الكتب يخزن الكتب المطبوعة ويبيعها باعداد غفيرة . ولقد ساهمت صناعة الكتاب والاتجار به في ازدياد عدد افراد الطبقة الوسطى ازدياداً سريعاً . ولقد كانت صناعة الكتاب وتجارته شيئاً جديداً ومربحاً ، ووجد عدد من الناشرين اصبحوا اغنياء حقيقيين من جراء اشتغالهم بصناعة الكتاب والاتجار به .

ولقد جلب الكتاب المطبوع الى المكتبة نفسها كثيراً من التغيرات ، ولكن ليس في اول الامر ، ذلك ان كثيراً من امناء المكتبات في القرن الخامس عشر وجامعي الكتب رفضوا اول الامر اضافة الكتب المطبوعة الى مكتباتهم ، فقد كانت الصفحة المطبوعة في نظرهم تقليداً هزيلاً لشيء حقيقي هي الصفحة المخطوطة . ولكن بالتدريج حل الكتاب المطبوع محل المخطوط واصبح المخطوط فيما بعد شيئاً نادراً اكثر مما هو شيء عادي يمكن استعماله باستمرار . ولقد زالت المناسخ من المكتبات مع قدوم الكتب المطبوعة التي وضعت على الرفوف المفتوحة . وان غزارة الكتب المطبوعة وتنوعها جعل بالامكان اعارتها اعارة خارجية ، وقد ادى ذلك بالتالي الى تأسيس مكتبات الاعارة باجرة فيما بعد في القرن الثامن عشر . كذلك تطلب وجود الكتب باعداد وفيرة وتزايدها المستمر اختراع اساليب جديدة من التصنيف واعيد ترتيب الكتب على الرفوف واجريت في هذا المجال عدة تجارب .

ولقد تنوعت الكتب كثيراً في حجمها ومحتوياتها في العهود الاولى من اختراع الطباعة . فقد كان كثير منها لايزال ذا حجم كبير ، بحجم النصف او الثلث .

وكانت هذه الكتب تشابه في حجمها المخطوطات المجلدة ، ولكن بعد فترة بدأت تظهر كتب ذات حجم صغير - هي كتب بحجم الثمن - ورائدها هو الدوس في البندقية . وظلت المطبوعات الدينية تفوق جميع انواع المطبوعات الاخرى . ولكن بعد فترة بدأت تنتشر الاعمال المعاصرة من علم وادب ورحلات وقصص ، الى جانب ان بدأ الطابعون يطبعون كتباً ، يتزايد عددها يوماً بعد يوم ، باللغات المحلية . وبعد فترة حل الحفر على النحاس محل الحفر على الخشب ، وتغيرت اشكال الحروف الطباعية في عدد من الدول باستثناء المانيا . فقد بسط الطابعون الذين اتوا في اواخر القرن الخامس عشر ومابعده الحرف القوطي الاسود الغامق ، واوجدوا خطاً اخف واقل سواداً وذاع استعماله .

صفحة العنوان :

كذلك تطورت صفحة العنوان في الكتب المطبوعة ، ذلك ان اول صفحة للعنوان استعملت في اوائل الكتب المطبوعة هو الكولوفونColopfon ، وكان مكانه في آخر الكتاب ويحمل اسم الكتاب واسم المؤلف والناشر او الطابع .

واننا لنجد الكولوفون موجوداً في ملفات البردى القديمة ، اذ كان يذكر في آخر الملف اسم المؤلف وعنوان الكتاب وموضوعه . ولقد تطور الكولوفون مع قدوم الكتاب الكراس ، فعندما حل الكتاب الكراس محل الكتاب الملف في القرن الخامس ، اعتاد بعض الناسخين ان يضيفوا اسماءهم وتاريخ ومكان النسخ الى آخر المخطوط ، وكانوا يوجهون الشكر ، بعض الاحيان ، لله تعالى ، لمساعدته اياهم في انجاز العمل ، ويسألون القارىء الدعوات الصالحات . وقد اعتاد بعض الناسخين ان يرتبوا الكولوفون في شكل هندسي .

ووجد هناك نساخ آخرون كانوا يضيفون الى الكولوفون بعض المعلومات التي يهمهم ان يطلع عليها القراء مثل : طريقة استخدام المخطوط او التحذير من اللصوص . ونجد في المخطوطات الشرقية في كثير من الاحيان دعوات صالحة موجهة للناسخ والواقف ، الى جانب تاريخ الانتهاء من النسخ وتوقيع الناسخ او ختمه .

واول كولوفون ظهر في الكتب المطبوعة هو الكولوفون الذي اضافه فوست وشوفير الى كتاب المزامير الذي تم طبعه سنة ١٤٥٧ م ويحوي اسميهما وتاريخ الانتهاء من الطباعة . كذلك ظهر الكولوفون في كتاب التوراة الذي طبعه نفس الطابعين سنة ١٤٦٢ م ، واضافا الى ما سبق ان ذكرناه شعارهما المؤلف من ترسين توأمين يتدليان من احد الاغصان . ومنذ ذلك الحين انتشرت عادة تسجيل اسم الطابع ومكان الطبع وتاريخه وعلامة الطابع في الكولوفون .

ويمكن تتبع تاريخ الطباعة وانتشارها عن طريق دراسة هذه الكولوفونات . لم يرد ذكر لغوتنبرغ في اي من الكولوفونات على انه مخترع الطباعة ، ولكن ورد اسم مدينة منيز على انها المدينة التي ظهر فيها فن الطباعة لأول مرة وتكامل . ولقد اضاف المصحح لكولوفون كتاب مؤسسات جوستنيان الذي طبع سنة ١٤٦٨ م اشعاراً يذكر فيها ان فن الطباعة اوجده اثنان اسم كل منهما جان ، وآخر اسمه بيتر . وربما كان ذلك اشارة الى جوهان غوتنبرغ وجوهان فوست وبيتر شوفير .

وقد مدحت الغالبية العظمى من الطابعين لطباعتها لكتابها في الكولوفون ونسبت الاخطاء المطبعية الموجودة في الكتاب الى العمال الذين قاموا بصف الاحرف وابدوا اسفهم لذلك . ولقد اعتبر الطابعون انفسهم ورثاء للناسسخين ولذا فقد نظروا الى عملهم على انه شيء مقدس وسألوا القراء ان يباركوا اعمالهم ، كما طلبوا الحماية من الله تعالى او من العذراء السيدة مريم او من القديس انطوني (من بادوا) الذي اعتبر حامي الطابعين . ولقد تغير شكل الكولوفون وتصميمه لجذب انتباه القارىء له . كذلك حوت بعض الكولوفونات فكاهة ، ووجد في بعض الكتب كولوفون مضاعف ، بل ووجد في عدد من الكتب عدد من الكولوفونات احدها للطابع وآخر للناشر وثالث للمؤلف وهكذا . . .

وقد اعتاد بعض الطابعين ان يجعلوا الكولوفون طويلاً جداً ، واعتاد آخرون ان يعلنوا في الكولوفون عن كتب طبعوها هم انفسهم وعن كتب سيطبعونها مما جعلها وسيلة للدعاية والاعلان . هذا وقد حوت بعض الكولوفونات التي صدرت في القرن الخامس عشر ، الى جانب الاخبار المألوفة والمعلومات المعروفة

عن الطابع والناشر والمؤلف ومكان وتاريخ الطبع ، اخباراً تتعلق بالطاعون والطوفانات والزلازل والحكام ووفاة بعض الطابعين القدامى وبروز طابعين جدد .

وتكشف الكولوفونات الملحقة بالكتب التي طبعت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر عن تطور مهم حصل في حقل الطباعة ، ذلك ان بعض الكولوفونات ذكرت حقوقاً ومميزات جديدة منحت للطابعين والناشرين . واول ذكر لامتياز من هذا النوع ورد في كولوفون ملحق بكتاب طبع سنة ١٤٩٢ م . فقد ورد فيه ان للطابع حق اعادة طبعه لمدة عشر سنوات وتفرض غرامة خمسين ليرة على من يخالف ذلك . وقد بدأ الامتياز في ايطاليا في القرن الخامس عشر ثم انتشر الى بقية البلدان . ولقد نقصت اهمية الكولوفون في القرن السادس عشر ، ولكن وجد بعض الطابعين الذين استمروا في استعماله .

هذا ويجب قراءة كولوفونات القرنين الخامس عشر والسادس عشر بعناية وحذر وذلك لوجود كثير من الاخطاء والمغالطات فيها ووجود كثير من الاكذوبات والتلاعب بالتواريخ . وان اشهر حالات ذلك هو اعادة طبع كتب من جديد دون تغيير الكولوفون الذي اخذ من الطبعة السابقة . ولما لم يكن هناك حفظ لحقوق التأليف فقد انتشرت السرقة والقرصنة . كما كان بعض الطابعين يعيدون طبع الكتاب مع الكولوفون السابق ويضيفون كولوفونهم الخاص فيوجد في الطبعة المتأخرة كولوفونات او كولوفون مضاعف . واحياناً كانوا يعيدون طباعة الكتاب ويضعون اسمهم في الكولوفون مكان اسم الطابع القديم . ولقد اهمل الناشرون في القرنين السابع عشر والثامن عشر الطابعين كثيراً ولم يعد الكولوفون يستعمل الا في بعض المناسبات ؛ فقد استعمل ليصحح صفحة العنوان او ليكمل المعلومات الموجودة في صفحة العنوان .

ولقد حاول وليم موريسWilliam Morris احياء استعمال الكولوفون في الكتب المطبوعة ، وكان ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما بدأ في احياء وابراز المعايير الرفيعة التي استعملت في الطباعة في القرن الخامس عشر . وفي ايامنا هذه فان اغلب المطابع الخاصة ـ في الولايات المتحدة الامريكية ـ

تستعمل الكولوفون ، بعضها مختصر ويحوي انباءً صحيحة ، وبعضها مطول يحوي ملحاً وفكاهات .

الظروف الاقتصادية للطباعة الاولى :

كان عدد كبير من الطابعين يتجول في انحاء اوربا من مكان الى مكان ويحيا حياة متنقلة من بلد الى بلد ، ويرجع السبب في ذلك الى ان بعض الكنائس الخاصة والمؤسسات الكنسية الاخرى كانت مواردها اضعف من ان تمول مطبعة خاصة بها باستمرار ، مما اضطرها عادة الى استدعاء احد الطابعين لمدة محدودة من اجل طبع كتبها الدينية ، كما كانت الحال مثلاً مع الطابعين سنيلSnell وآرنديس .

منافسة المخطوط للمطبوع :

كان تجار الكتب قد انشأوا نقابة تضم النساخين والرسامين والمجلدين ، وحاولوا بمساعدة الجامعات ، التقليل من شأن منافسيهم الجدد (الطابعين) وتحقيرهم . ولكن جهودهم باءت في النهاية بالخيبة والخذلان . ولقد حافظت المخطوطات في العهود الاولى على سيادتها اذ ظلت موضع التقدير والاعتبار ، كما كانت الحال في العصر القديم بالنسبة لملفات البردى عندما نافستها كتب الرق الاولى ، او كما هي الحال في العصور الحديثة بالنسبة للكتب المطبوعة بطريقة جمع الحروف باليد امام منافسة الكتب المجموعة حروفها آلياً . والواقع ان كثيراً من هواة جمع الكتب في هذا العصر كانوا معادين عداوة صريحة للكتاب المطبوع ، الى حد انهم لم يطيقوا أبداً اضافته الى مجموعات كتبهم ، كما فعل الدوق فريدريك دوربان . وتعتبر محاولات اقدم الطابعين لمحاكاة المخطوطات دليلاً على مقدار المكانة العظيمة التي كانت تحتلها تلك الكتب المخطوطة . ومع ذلك يجب ان نقرر انه حوالي نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر بدأ فن تصوير المخطوطات ، وبالتالي محاولات تقليد المطبوع للمخطوط في الاضمحلال ، وان

ظل له في الواقع عدد معين من الانصار وعدد معين من المختصين الاكفاء . ولكن ايام المخطوط الذهبية ولت الى غير رجعة .

ومهما يكن من امر فقد رسخت اقدام الكتاب المطبوع في وقت قصير ، بحيث تحول كثير من الخطاطين والنساخين والرسامين القدامى الى طابعين ناشرين ، او الى حفارين على الخشب ، كما اتخذ الكتاب المطبوع مكانه شيئاً فشيئاً على رفوف خزائن الكتب ، هذا على الرغم من ان بعض المكتبات ظل يصر على اعطاء مكان الصدارة في مجموعاتها للمخطوطات دون الكتب المطبوعة ، مع وجود اعداد ضخمة من الكتب المطبوعة .

ولقد استدعت الكنيسة الطابعين لخدمتها ، وحل في الاديرة المطبعة محل المنسخ القديم . كذلك ادرك الانسانيون الايطاليون فائدة واهمية فن الطباعة الجديد وما يمكن ان يؤديه من خدمات ، على الرغم من تفضيلهم المخطوط ، ولذا سرعان ما بدأوا في استخدامه .

المنافسة بين الطابعين :

لقد ذرت المنافسة بين الطابعين قرنها بعد ذلك التطور السريع في مجال الطباعة ، اذ ان تخفيض الاسعار كان مما يساعد على اتساع سوق الكتب ، فلم يكن ظهور مؤلفات شعبية كثيرة في انتاج هذه الفترة الاولى ، امراً يرجع الى محض الصدفة ، وكان من بين هذه المؤلفات الشعبية التي صدرت باللغة الوطنية ، كتب تاريخ وكتب خرافات ومواعظ دينية او مغامرات او غير ذلك من الكتب . وكانت هذه الكتب تزين بصور جذابة بقصد ان تنال انتشاراً واسعاً بين طبقات الشعب العامة التي ظلت حتى آنذاك بعيدة عن دائرة مشترى الكتب .

ومع هذا فان هذا الجمهور لم يكن كبيراً للغاية ، ولاقادراً على امتصاص ذلك التيار الجارف من الكتب . حقاً ان الظروف في ايطاليا كانت اكثر ملاءمة . اما في الاقطار الاخرى فلم يكن للطابعين بها ارباح طائلة مما جعل بعضهم يتجول بين عدد من الاقطار وهم يحملون معهم آلاتهم الطباعية . والمعروف انه بلغ عدد الكتب المطبوعة حتى سنة ١٥٠٠ م حوالي ٣٠ الف كتاب (ثلثها في المانيا

وحدها) . ومع ان عدد النسخ المطبوعة من كل كتاب كانت تتراوح في اغلب الاحيان بين ١٠٠ و ٣٠٠ وقلما تصل الى ١٠٠٠ ، الا اننا نجد انفسنا امام انتاج غزير كل الغزارة .

باعة الكتب المتجولون :

كان اغلب الطابعين في تلك الفترة هم بائعو الكتب في الوقت ذاته ، فيقوم ببيع الكتب التي طبعها . ولكن لم يلبث ان ظهر الباعة المتجولون للكتب ، وهم الوكلاء الذين يتنقلون من بلد الى بلد لبيع الكتب التي يشترونها من الطابعين .

ولايزال يوجد حتى زماننا هذا نشرات وزعها الباعة المتجولون ترجع الى عام ١٤٩٦ م تعلن وصولها الى المدينة ، كما كانت هذه النشرات تحوي اسماء الكتب التي يعرضها الباعة ، داعية الزبائن الى زيارة محلهم الذي اقاموه في الفندق حيث ينزلون .

كبار الناشرين :

لم يحقق ارباحاً مجزية من هؤلاء الطابعين غير بضعة نفر منهم ممن كانت صفقاتهم كبيرة وممن استطاعوا افتتاح الحوانيت على نفقتهم في المدن التجارية الكبرى من امثال شوفير في باريس ، ذلك لان سوق الادب اللاتيني لم يكن وقفاً على حدود بلد اوربي واحد .

وصارت فرانكفورت وكولونيا وستراسبورغ مراكز لتجارة نشطة في الكتب . وكان من بين الذين اشتغلوا بهذه المدينة الاخيرة جان منتلان الذي طبع اول توراة المانية ، وكان يقوم بطبع الكتب ويكلف الطابعين الآخرين بطبع الكتب له ، وكان يدفع لهم اجر انتاجهم ورقاً ابيض يعادل ضعف ماكانوا يقدمون له من ورق مطبوع . على ان اعظم هؤلاء الطابعين الناشرين كان انطون كوبرجرKoberger الذي كانت مؤسسته في نورنبرغ اعظم المؤسسات الالمانية في عصره حتى بلغ عدد الكتب التي نشرها بنفسه ما يقرب من مائتي وعشرين كتاباً . وكان له فروع في فرانكفورت وباريس وليون ، كما كانت له صلات تجارية مع تجار

الكتب في ايطاليا وهولندا والنمسا والمجر ، ولقد نشر مندوبوه المتجولون النشطون كتبه لافي ارجاء المانيا وحدها ، وانما في الدول المجاورة ايضاً . كذلك احتل في ايطاليا نقولا جينسون الذي كان مقره البندقية المكانة الاولى حول نهاية القرن الخامس عشر .

الاعمال التجارية :

لم يكن من النادر ان يشترك طابع وحفار على الخشب وممول في انتاج كتاب ضخم . وهذا ما فعله انطون كوبرجر سنة ١٤٩٢ م عندما عقد اتفاقاً مع بعض الفنانين والممولين بقصد نشركتاب**تاريخ العالم** لمؤلفه شدل باللغتين الفرنسية والالمانية . وكان مقرراً صدوره في طبعتين احداهما ملونة بالحفر على الخشب والاخرى غير ملونة . وكان من المقرر ان ينال جميع المشتركين في هذا المشروع نصيباً من الارباح . وكان بعض طابعي هذه الفترة المبكرة على قدر كبير من الثقافة ، كما كان بعض البحاثة يلتحقون بخدمة المطابع الهامة كناشرين ومصححين .

متجر الكتب :

لقد بدأت متاجر الكتب المتنوعة تظهر في المدن الكبرى والمتوسطة في اواخر القرن الخامس عشر ؛ وقد اسسها واستخدمها كبار الناشرين ، واستطاعوا بهذه الوسيلة ليس فقط بيع كتبهم التي يقومون بطبعها ، وانما يستطيعون بيع الكتب الاخرى التي ينشرها غيرهم من الناشرين . كما تأسست متاجر كتب مستقلة لبيع الكتب المتنوعة وذلك في كل مكان وجدت فيه تسهيلات تجارية وخاصة المراكز التجارية والجامعية الكبرى . ومن المؤكد ان الناشر كان يمنح خصماً لتاجر الكتب بالتجزئة ، وان كان لايعرف بوجه عام الكثير من العلاقات بين الطرفين ولامعدلات الاسعار في تلك الحقبة المبكرة من تاريخ الطباعة .

التقليد :

يحتمل ان كثرة عدد النسخ المقلدة ـ التي انتشرت انتشاراً واسعاً في العهد الاول للطباعة ـ كان من جملة اسباب هبوط اسعار الكتب تدريجياً ، ولم يكن هناك اي سبيل امام الناشرين والطابعين للمحافظة على حقوق ملكيتهم . وقد قلدت كتب كثيرة منذ ظهورها . وربما فسر التطور السريع لعلامات الطابعين رغبتهم في اثبات ملكيتهم لهذه الكتب . ولاجدال في ان اول علامة لطابع فرنسي كانت للطابع الباريسي انطوان كايو الذي قلد كتب**ساعات الفروض** التي نشرها جان دوبريه . ومع هذا فلم يمنع هذا من ظهور مقلدين ايضاً لعلامات الطابعين نفسها ، مما اظهر عدم كفايتها لحماية حقوق الطبع .

دراسة اقدم المطبوعات : INCUNABULA

يطلق على اقدم الكتب المطبوعة ، حتى ١٥٠٠ م ، اسمLncunabula ، وهي كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينيةCunabulum ومعناها المهد . وقد درست هذه الكتب دراسة مكثفة جداً ، والف عنها العديد من الكتب واعدت لها الفهارس المتعددة المتقنة . وعرف عددها واماكن وجودها ، كما درست خصائصها الفنية والطباعية واحرفها التي طبعت بها مما يشكل موضوعاً مستقلاً قائماً بذاته .